

(النسق القيمي وبنوية الغش الاجتماعي)

د/ سعد العيشي، جامعة الجلفة

ملخص :

أصبحت ظاهرة الغش حتمية اجتماعية فرضت نفسها على الافراد كسلوك وعلى المجتمع كبناء يؤدي إلى تغيير في النسق القيمي من خلال الأنوميا الاجتماعية باختلال المعايير ومن ثم يصبح الغش قيمة اجتماعية مقبولة اجتماعيا وهذا أذان بخراب العمران حسب الطرح الخلدوني وانهار القيم حسب هبرماس وديناميكا اجتماعية ولكنها سلبية حسب كونت.

الكلمات المفتاحية: الغش، النسق، القيم، المعايير، اللامعيارية، البنية

Abstract:

The phenomenon of cheating has become a social imperative that has imposed itself on individuals as behavior and on society as a structure, leading to a change in the value structure through social anomia, the imbalance of standards and then become cheating social value socially acceptable and this deafness of the destruction of urbanization according to the proposal (Khaldoni) and the collapse of values by (Habermas) and social dynamics and we are negative according to (Comte).

مقدمة مسألية :

انتشرت في وقتنا الراهن ظاهرة الغش في المجتمع حيث مست كل الأنساق الاجتماعية، النسق الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتربوي والمعرفي والتكنولوجي وكل المؤسسات الاجتماعية كالأُسرة والمدرسة والجامعة والمسجد وجماعة الرفاق والإعلام والمؤسسات الخدمية والتجارية والأسواق، والمراكز الثقافية والفن والمستشفيات والرياضة..... فالفرد يجد نفسه محاط بنسق من الغش كحتمية تجعله يتعامل معه للتكيف كأن يشتري موادا مغشوشة أو يتعامل مع أفراد هم متواجدون في أدوار ومناصب هي نتاج الغش الاجتماعي وتجد بعض الأسر تعيش المستوى الاجتماعي الذي يرفع من رأسمالها الرمزي وهي في الواقع أقل من هذا المستوى كذلك أئمة المنابر يقولون مالا يفعلون عندهم فكر علماني مع أنهم يكفرون العلمانية فالعلمانية هي فصل الدين عن الدولة هذا بالمفهوم القديم لكن المفهوم الحديث للعلمانية عند هؤلاء الأفراد فصل الدين عن الحياة الاجتماعية فأفكار الإمام هي للاستهلاك المسجدي لا غير وبالتالي فالطرح مغشوش وغير واقعي، كذلك نجد الصداقة لدى الشباب أصبحت صداقة خالية من ذلك الرابط الاجتماعي الذي نجد فيه أفراد يجمعهم نفس المرحلة العمرية ونفس النمو العقلي ونفس التمثل والتصور للواقع بل أصبح الرابط الأساسي والمحوري هو مدى وجود المصلحة بينهما حتى في الاستمتاع أو الانحراف تبقى المصلحة طاغية، هذا بين نفس الجنس أما بالنسبة للصداقة المختلفة الجنس، فقد بدت العلاقات خالية من ما كان يسمى في القديم الحب وهذا الجانب الوجداني كان سائد بقوة عندما كان المجتمع بسيطا، أما الآن بعد تعقد المجتمع فلم يعد للحب وجود حيث باتت العلاقات برغماتية فهناك نوعان من العلاقات عند الشباب المشكل للثنائيات علاقة تطمح للزواج بالقبول دون ذاك الحب الكبير وهناك علاقة تطمح للجنس والمتعة فقط دون وجود للجانب العاطفي فالعلاقات في كلتي الحالتين خالية من الجوانب العاطفية، أما في المدرسة فبات المدرسون يخلقون مدرسة موازية للمدرسة الحكومية إذ نجدهم يمارسون نشاطات الدروس الخصوصية للتلاميذ عن الدروس التي يقدمونها في الصباح وهذا دليل على أنهم يغشون في

العملية التعليمية التي يمارسونها كوظيفة داخل القطاع الحكومي كذلك يغششون التلاميذ الذين يكونون معهم في الدروس الخصوصية بحل التمارين التي يقدمونها لهم فالتغشيش مرتين ، أما وسائل الإعلام والاتصال فهي وسائل ضعفت لديها المصداقية وبات الصحفيين ينشدون المظاهر من أساليب في الحوار وطلاقة في اللسان على حساب المعنى والهدف والغاية من الحصة سقطت المسؤولية المعيارية. أما في الثقافة فأصبح الإبداع عبارة عن قوة شبكة العلاقات فالذي يملك هذه الشبكة هو المبدع وهو الذي يكرم ويحصل على الجوائز والمنح ، أما في الرياضة فاللاعب أو الرياضي الذي لديه عنصر في النخبة السياسية يساهم مع الفرق ويتمنح التريصات وتصرف عليه المبالغ الطائلة دون مراعاة للوطنية ولا لمشاعر هذا الشعب، أما في الزراعة فقد أصبحت الخضر مغشوشة في المواصفات حيث أصبحت ضارة للإنسان باستعمال الفلاحين مواد كيميائية ضارة تزيد في حجم وسرعة الإنتاج كاستعمال المازوت لاحمرار البطيخ ، أما في التجارة فالمستوردين خاصة من الصين يعتمدون على الغش في المواصفات للربح السريع ، فيستوردون السلع التي يطلبون من منتجها الغش في المواصفات لتحقيق أدنى سعر للتكلفة ، أما في المجال السياسي فنجد في البرلمان أفراد لا يرق مستواهم المعرفي والإداري للتنظير للشعب والأمة ، فالمفروض يعتلي هذه المنصب النخبة .

فالمجتمع تفشت فيه هذه الظاهرة التي مست كل الأنساق ، فالنسق الثقافي تمثل في عدم إعطاء الحق للموهبة ، أما النسق السياسي فتمثل في عدم إعطاء الحق للكفاءة ، أما النسق التربوي فتمثل في عدم إعطاء الحق للمتميزين بالنسبة للمدرسة ، أما النسق الاجتماعي فالأسرة تعيش الوهم الاجتماعي ولا تعيش الطبقة ، أما النسق الاقتصادي ، صنع موارد بشرية غير مؤهلة وغير كفوة ، وساهم في تهميش الكفاءة أما السياق التكنولوجي فنحن نسير خارج السياق العالمي في التكنولوجيا .

لم يترك الغش نسفاً من أنساق المجتمع إلا ودخله وهذا يوحي لنا بتساؤل مهم يلوح في الأفق ، ماهي أبعاد وديناميات الغش في البناء الاجتماعي ؟

1. مفهوم الغش:

المفهوم الثقافي : لقد ذمَّ الله عزَّ وجلَّ الغش وأهله في القرآن وتوعدهم بالويل، ويُفهم ذلك من قوله تعالى: { وَيَلُكِّمُ الْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } [المطففين: 1-3]

فهذا وعيد شديد للذين يبخسون- ينقصون- المكيال والميزان، فكيف بحال من يسرقها ويختلسها ويبخس الناس أشياءهم؟ إنه أولى بالوعيد من مطففي المكيال والميزان .

وقد حذّر نبي الله شُعيب- عليه السلام- قومه من بخس الناس أشياءهم والتطفيف في المكيال والميزان كما حكي الله عزَّ وجلَّ ذلك عنه في القرآن 11.

المفهوم الاجتماعي :

الغش ظاهرة تدل على سلوك غير سوي ، سلوك منحرف وغير أخلاقي ، وهو سلوك مرضي (بفتح الميم والراء) يهدف إلى تزيف الواقع لتحقيق كسب مادي أو معنوي ، أو من أجل إشباع بعض الحاجات أو الرغبات لدى الفرد والغش من الناحية الأخلاقية مثله مثل الكذب والرياء والخداع وهذه الدلائل للغش تتفق مع ما جاء في اللغة العربية من معنى للغش فيقال غشه ويغشه غشا ، أي لم ينصحه ، وأظهر له خلاف ما أضمره، والغش يدل على الغل والحقد والخيانة.1

المفهوم التربوي :

أما تعريف الغش من الناحية التربوية فإنه يعرف بأنه : عملية تزيف لنتائج التقويم ، كما يعرف بأنه محاولة غير سوية

لحصول التلميذ على الإجابة من أسئلة الاختبار ، وباستخدام طريقة غير مشروعة. 12

وفي ما يلي مجموعة من تعاريف:

الغش في الاختبارات المدرسية شكل من أشكال الخيانة .

الغش بأنه سلوك يهدف إلى تزيف الواقع لتحقيق كسب غير مشروع مادي أو معنوي أو إرضاء لحاجة نفسية والغش المدرسي

هو تزيف نتائج التقويم الذي هو من أهم عناصر المنهج. 10

المفهوم السوسولوجي :

ويعرف علماء الاجتماع الغش بأنه ظاهرة اجتماعية منحرفة وذلك لخروجها عن المعايير والقيم الاجتماعية التي يضعها

المجتمع ولما تركه من آثار سلبية تنعكس بصورة واضحة على مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع. 1

2. نسق القيم :

يرى بارسونز أن النظام الاجتماعي يعتمد على الوجود ، وتعتبر مشاركة القيم من قبل الأفراد حالة مشروعة وعامل يعمل

على ترابطهم ومن خلالها يتم اختيار العقل النهائي ، وتحقق الصلة بين النسق الاجتماعي ونسق الشخصية من خلالها تبني

القيم وتجذيرها في الذات الفردية بواسطة عملية التنشئة الاجتماعية وفي الواقع لا يتم اختزال القيم أو تفسيرها من قبل

المصالح الفردية أو من خلال الحاجة البيولوجية أو الطبقة ، وهناك ثلاث انتقادات لهذا الطرح أن المجتمع قائم رغم عدم

الإتفاق على القيم ، وقد تقبل القيم عمليا أكثر من معيار ، وأنها لا تكتسب بفاعلية البناء الاجتماعي الضاغطة ، يميز بعض علماء

الاجتماع بين القيم التي تتسم عادة بأنها قوية وشبه مستمرة وعميقة التأثير وتمثل استعدادا كامنا في بعض الأحيان ، هذا من

ناحية وعلى الناحية الأخرى الاتجاهات التي تتسم بأنها سطحية نسبيا وغير متجذرة في نفوس الأفراد وتحوي آراء ووجهات نظر

شديدة التغير ، وبإمكان المجتمع الإنساني أن يتقبل في العادة وجود اتجاهات شديدة التنوع في داخله وذلك في الوقت الذي

يتطلب فيه هذا المجتمع قدرا من التجانس والأنساق والقيم التي تعمل صياغة الاجتماع الاجتماعي والسياسي والشائع عادة أن

النظريات السوسولوجية لأصحاب الوظيفة المعيارية أو أصحاب نظرية الإجماع عموما وعند تالكوت بارسونز على وجه

الخصوص يبالغون في تأكيد أهمية القيم المشتركة في الحفاظ على النظام الاجتماعي . ويمكن القول بشكل أكثر عمومية أن

علم الاجتماع بكافة فروعها يهتم بالقضايا القيمية ، وقد تصدى الكثيرون من الكتاب الكلاسيكيين ومن أبرزهم إميل دوركايم

، وماكس فيبر لمناقشة دور القيم في البحث الاجتماعي بشبه من التفصيل ، وعند هذا المستوى الفلسفي يبدو أن قضايا

القيمة تهم علم الاجتماع من ناحيتين ، الناحية الأولى لما كان المجتمع نفسه يتكون جزئيا ، بفضل القيم فمعنى ذلك أن دراسة

علم الاجتماع هي في جانب منها دراسة القيم ، الناحية الثانية لما كان علماء الاجتماع أنفسهم أعضاء في المجتمع ، ويفترض فيهم

الإيمان بالقيم (الدينية السياسية وغيرها) فمعنى ذلك أن البحث السوسولوجي سوف يتعرض لتأثيرات مفسدة أو ضارة

فيما يتصل بالقيم أو فيما يتصل بالإيديولوجيات (على نحو ما يرى الماركسيون) والواقع أنه بسبب ذلك ذهب البعض إلى القول

بأن علماء الاجتماع قد يعجزون عن تحقيق الحياد القيمي الذي يتوقع أن يلتزم به العلماء عموما. 6

ويمكن القول إن هذه المناقشات المعرفية عن دور القيم في العلوم الاجتماعية يمكن أن تمس البحث السوسولوجي على

ثلاث مراحل المرحلة الأولى عند اتخاذ القرار بدراسة موضوع معين كالدين أو الجنسية المثلية حيث تثار قضايا الدلالة القيمية

والموضوعية وأخيرا المرحلة الثالثة في تأثيرات نظريات أو بحوث معينة على المجتمع ، حيث تثار قضية الآثار القيمية وتلاحظ في الواقع أن غالبية علماء الاجتماع ، مقتنعون بأن مثل هذه التقسيمات الحادة لا يمكن إجراؤها بسهولة ويقرون بأن القضايا القيمية المختلفة تتداخل مع بعضها بعضا .

ومن السمات المميزة للوضعية الفلسفية أنها تعتبر أن العلوم بما في ذلك العلوم الاجتماعية يجب أن تكون محايدة فيما أو متحررة تماما في القيمة وهي تتوقع من العلماء أن ينجحوا (أو على الأقل أن يسعوا بقوة) في التخلص من أشكال التحيز والميول كافة في كل مرحلة من مراحل دراستهم من هنا بعد الحياد القيمي ضرورة لا غنى عنها للبحث العلمي في علم الاجتماع كذلك يعتقد أن علم الاجتماع يتسم بالطابع فني خالص وأنه يقدم نتائج ليست لها أي دلالات محددة بالنسبة للسياسات فيما يتصل بالسعي نحو قيمة معينة على النقيض من هذا الموقف يقف الماركسيون إلى أن كل رحلة من مراحل التحليل السوسيولوجي زاخرة بالفروض والتأثيرات السياسية والأخلاقية إلى حد أن علم الاجتماع نفسه أصبح مشروعا إيديولوجيا على نحو لا يمكن تجنبه أو إصلاحه ولكننا نجد الغالبية العظمى من علماء الاجتماع يتخذون مواقف تقع في مكان ما بين هذين الطرفين ، حيث يذهبون مثلا إلى أنه على الرغم من اختيار موضوع البحث أو مجاله لابد وأن يثير مسائل قيمية ، فإن تنفيذ الدراسة يتعين أن يتم بكل حياد قدر الإمكان وأن تفرض النتائج بشكل محايد ، ولكن بطريقة استخدام الآخرين لتلك النتائج يعود ليثير مرة أخرى قضايا قيمية هي في الواقع قضايا السياسة التي ستتخذ وهناك حل علمي كثيرا ما يتردد لمواجهة القضايا المعرفية التي يثيرها موضوع القيم 9.

ويتمثل في الرأي القائل بأن علم الاجتماع متصل بشكل لا ينفصل عن الأخلاق والقيم وأنه لا يستطيع أن يطهر نفسه منها ، ومن ثم فإنني يتعين على علماء الاجتماع أن يعلنوا صراحة عن الحوار الدائر حول هذا الموضوع (أي عن تحيزاتهم وميولاتهم) 14.

من العناصر الجوهرية في جميع الثقافات ، منظومة الأفكار التي تحدد ما هو مهم ومحبد ومرغوب في المجتمع وهذه الأفكار المجردة أو القيم هي التي تضي معنى محددا وتعطي مؤثرات ارشادية لتوجيه تفاعل البشر مع العالم الاجتماعي ، فالنظرة للغش على أنه خلق منبذ اجتماعيا يمثل إحدى القيم البارزة في أكثر المجتمعات العربية أما المعايير فهي قواعد السلوك التي تعكس أو تجسد القيم في الثقافة ما وتعمل القيم والمعايير سويا على تشكيل الأسلوب الذي يتصرف به أفراد ثقافة ما إزاء ما يحيط بهم ففي الثقافات التي تعلي من قيمة التعلم على سبيل المثال ، فإن المعايير تشجع الطلبة على تكريس جانب كبير من طاقاتهم للدراسة كما أنها تحفز الوالدين على التضحية بجانب كبير من الجهد والمال لتعليم أبنائهم وفي الثقافات التي تعلي من شأن الكرم وحسن الضيافة فإن المعايير الثقافية قد تؤكد التوقعات بتقديم الهدايا ، مثلما تشدد على أنماط السلوك الاجتماعي لدى الضيوف والمضيفين وتتفاوت القيم والمعايير وتختلف اختلافا بينا من ثقافة إلى أخرى 7.

3. اختلال المعايير:

تعني كلمة اللامعيارية المشتقة من الكلمة اللاتينية "Anomie" ، انعدام القانون أو انعدام الخطة ، أو انعدام الثقة أو تعني الشك . وقد أوردت بعض القواميس الكلمة على شكل "Anomie" لتعني حالة من الإضطراب ، أو اختلال النظام ، أو الشك ، أو عدم اليقين أو الحياة بدون قانون . وعندما يستعملها المتخصصون في العلوم الاجتماعية فانهم يشيرون الى خاصية تتعلق بالبناء الاجتماعي ، أو في أحد الأنظمة الاجتماعية التي يتركب منها ، وليست لحالة ذهنية . فهي تعبير عن انهيار المعايير الاجتماعية التي تحكم السلوك ، كما تعبر أيضاً عن ضعف التماسك الاجتماعي . وعندما تنتشر حالة اللامعيارية بشكل واسع بين أعضاء مجتمع من المجتمعات ، تفقد القواعد التي تحكم السلوك فيه مفعولها أو قوتها 13.

ويري بعض الباحثين أن اللامعيارية تعني انعدام القاعدة ، أو انعدام أو ضعف المعيار. والمعيار شرط ضروري لتنسيق قيم المجتمع وبيان علاقتها ببعضها من حيث أهميتها التراتبية . وقد يضعف المعيار أو يزول لأي سبب من الأسباب . فالتغير التكنولوجي السريع يضع ضغوطات على الثقافة، لتطوير قيم جديدة، يستخدمها الأفراد في عملية التوافق مع منتجات التكنولوجيا التي سيستخدمونها . وكلما فاقت سرعة التغير التكنولوجي سرعة تطوير قيم ثقافية جديدة كلما ظهرت حالة من حالات ضعف أو زوال المعيار. 6

ويقارن البعض بين حالة فقدان المعايير، وحالة التماسك الاجتماعي، حيث تعتبران على طرفي نقيض . فالتماسك الاجتماعي يعتبر حالة من التكامل الأيديولوجي الجماعي، بينما حالة فقدان المعايير هي حالة من الخلط واللبس ، وانعدام الأمن ، وحينئذ تكون التصورات الجماعية في حالة انحلال وتدهور. ولإنتشار اللامعيارية في مجتمع من المجتمعات عدة مؤشرات تدل عليها ، كما أنها تنتشر بدرجات أو معدلات مختلفة، تتدرج من بسيطة إلى عالية . فمثلاً ، يعتبر معدل اللامعيارية عالياً في مجتمع، إذا تفادى فيه أعضاء المجتمع رجالاً ونساء التردد على أماكن عامة، لخوفهم من التعرض لهجمات من آخرين، مستخدمين العنف لفرض حالات معينة عليهم . وكذلك إذا اضطرت فئة من فئات المجتمع، مثل النساء أو الأطفال أو كبار السن، إلى تجنب التردد على أماكن عامة لخوفهم من المضايقات، المتمثلة في اعتراض طريقهم، وأسماعهم كلمات بذيئة ، أو لمسهم في أماكن من الجسم، لا يجوز لغريب أن يلمسهم فيها وغيرها من الأفعال، التي تقع في هذا المجال . وقد يكون معدل اللامعيارية في المجتمع منخفضاً أو عالياً.

ويعتبر معدل اللامعيارية عالياً على مستوى النظام الاجتماعي، عندما يسود المجتمع نقص في الإجماع على المعايير ، وعندما تسوده علاقات تقوم على الشك، وعدم تصديق الآخرين، وتدني حالة الأمن والأمان . وإذا وصل معدل اللامعيارية إلى المستوى الذي لا يستطيع الناس أن يتفوقوا بدرجة كافية، في أن يكون سلوك الآخرين مطابقاً للمعايير المشروعة، فإن هذا يعني أن أزمة اللامعيارية هي أزمة اجتماعية، وليست أزمة تخص جماعة محدودة من أعضاء المجتمع. 3

اللامعيارية حالة من حالات اختلال القيم والمعايير على مستوى المجتمع بكافة فئاته ونظمه ، ومؤسساته الاجتماعية . ويصبح نمط من أنماط السلوك المنحرف كالغش مثلاً، لا يمثل مشكلة فردية تنم عن اختلال النسق القيمي والأخلاقي للطالب. بل يصير هذا السلوك انعكاساً لما يدور في البيئة الاجتماعية من ممارسات، لا يتقيد أصحابها بالشروط اللازم توفرها في الوسائل لتجعلها سبلاً قانونية ومشروعة للوصول إلى الأهداف .

مع أن نسق القيم السائد في المجتمع هو الذي يتحكم في نسق القيم السائد على مستوى الفرد، إلا أن نسق الأخير قد يتأثر بعوامل خارجية كثيرة . ويفترض بالنسبة للموضوع الحالي، أن الذي سيسلك سبباً نتيجة لتأثره بخصائص في البيئة المحلية تضغط باتجاه اللامعيارية، لا بد وأنه تطورت في داخل نسقه القيمي حالة من اللامعيارية . وسنطلق على هذه الحالة الخاصة بالفرد (الأنوميا). وسنفترض وجود علاقة بين الأنوميا (اللامعيارية على مستوى الفرد) وبين سلوك الغش . ونفترض أن هذه العلاقة ليست مباشرة، وإنما تمر عبر متغيرين آخرين هما تجاوز الفرد عن الغش (درجة تأييده للسير في هذا الطريق) ، وعدم اهتمامه بالعمل الذي يخضع للمعيار الاجتماعي . وعليه فحالة التجاوز عن الغش، وحالة عدم الاهتمام بالعمل النمطي ستؤديان إلى سلوك الغش نفسه. وإذا كانت ظاهرة الغش مشكلة أخلاقية، فقد تسهم فيها بعض الظروف الاجتماعية المحيطة بالطلاب ، فما هي يا تري تلك العوامل التي تتعلق بالطلاب أنفسهم، فتجعلهم يتجاوزون عن سلوك الغش، ومن ثم يخرطون في ممارسته ؟ وما علاقة كل هذا بدرجة اهتمام الفرد بالتحصيل العلمي، وحرصه على التزود بمعرفة علمية على درجة عالية من الجودة ،

وحرصه على التفوق العلمي بجدارة ، ومقارنته لتحصيله بتحصيل الآخرين في مجتمعه أولاً ، وفي خارج مجتمعه ثانياً بعد أن أصبح العالم من حيث سهولة الاتصالات والوقوف على ما يجري في بقية أنحاء المعمورة كالقريبة؟

وتغير القيم وخصوصاً في الوقت الحاضر ، يحدث بسبب تأثير ثقافات أخرى ، أو بسبب محاولة التلاؤم مع مظاهر التغير المادي. فالتطور التقني مثلاً يتطلب تغييراً في القيم. فنتاج الصناعة كالسيارة مثلاً مواد جامدة. لكن هذه المواد الجامدة عندما تستخدم ، فإنها ستستخدم في مجالات واسعة. وهذه المجالات ستطال العلاقات الاجتماعية. وهذه لا يمكن أن تبقى على حالها الذي كانت عليه قبل التوسع في استخدام السيارة. ومع الفوائد الكثيرة لانتشار السيارة ، إلا أنها ستؤدي إلى تغيير العلاقات التقليدية بين الجنسين. تغييرات قد ينظر لها المنتمون لجيل الكبار ، كنوع من التمرد أو حتى من فساد الأخلاق. وما قيل عن السيارة يمكن أن يقال عن جميع منتجات الصناعة 4.

3. حتمية التغير:

أقرن التغير الاجتماعي في بلدان كثيرة بالانتشار الواسع للتعليم ، وارتفاع مستوى الخدمات الصحية والسكنية ، والتوسع في مشاريع الزراعة والصناعة ، وتطوير قطاع الاتصالات والمواصلات ، وانتشار مجتمع الاستهلاك. وصاحب هذا التغير سيادة القيم المادية وارتفاع مستوى الطموحات ، والرغبة الشديدة لتحقيق النجاح المادي والمعنوي. وهذا يقود إلى ظهور قيم جديدة ، وتحوير قيم قديمة ، للتعامل مع أنماط سلوكية جديدة ، والتحويرات التي حدثت على قيم قديمة. وقد يأخذ التغير في مجال القيم شكلاً سريعاً. وقد تفوق سرعته مقدرة تكيف الفرد . وبعبارة أخرى قد يفشل بعض أعضاء المجتمع في مسايرة نمط التغير في نسق القيم. إذ لا يستجيب الجميع لتغير القيم بنفس الكيفية. بل أن البعض يحاول التماهي في التمسك بالقديم ، بينما تلجأ الغالبية إلى خلط القديم بالجديد. وقد يقود كل هذا إلى أن يفشل البعض في التعرف على القيم المناسبة. وهنا تضطرب الأمور ، وتظهر على السطح أشكال كثيرة من أنماط السلوك ، التي تبدو وكأنها صادرة عن حالة من حالات الارتباك والاضطراب في التمييز بين المشروع والممنوع. وقد يلجأ البعض إلى ممارسة كل ما يرونه كفيلاً بتحقيق طموحاتهم وأهدافهم ، دون التفكير كثيراً فيما إذا كان هذا يتعارض والقيم التي كانت سائدة وتلك التي تحض على حسن الخلق . 8

رافقت مراحل التغير الاجتماعي وخصوصاً السريع ، هجرة واسعة من الريف في اتجاه المدينة. وفي حالات كثيرة لم تكن المدينة مستعدة لكمية المهاجرين الجدد. فلهؤلاء مطالب متنوعة ، خصوصاً في مختلف مجالات الخدمات ، كالسكن والتعليم ، والصحة والمواصلات. وتقود الهجرة على نطاق واسع إلى مشكلات كثيرة ، مثل الازدحام الشديد في الطرق ، وفي السكن وفي المدارس ، وارتفاع معدلات الجريمة وجنوح الأحداث ، وارتفاع معدلات المشكلات النفسية ومظاهر سوء التكيف وغيرها. وقاد هذا بطريق مباشر أو غير مباشر إلى ضعف التقاليد والأعراف ، وضعف الارتباط الاجتماعي على مستوى الأسرة ، وعلى مستوى الجماعة الأكبر ، وضعف أو تلاشي دور الكبار ، في المحافظة على استمرار احترام القيم والمعايير 5.

ولقد أثر التغير الاجتماعي وخصوصاً السريع ، على وظائف الأسرة. حيث خرجت الأم هي الأخرى إلى خارج المنزل لتنخرط في سوق العمل. وطالت ساعات عمل الرجل ، وتباعد مقر عمله عن مقر سكنه. انشغل الوالدان بالجري وراء كسب المال ، لمواجهة أعباء الحياة في المدينة. في المجتمع الحديث ، وأعباء الحياة في المجتمع الحديث كثيرة. وهي أعباء آنية ، وأخرى لها علاقة بالمستقبل. وجميعها في حاجة إلى المال. ضعفت رقابة الأب ، كما ضعفت رقابة الأم ، وضعف بذلك دورهما في التربية ، وفي التنشئة الاجتماعية ، وفي تعليم الصغار القيم الثقافية الرئيسة. أخذت مؤسسات اجتماعية أخرى بعض وظائف الأسرة. ملأت هذه المؤسسات الفراغ الذي نتج عندما تخلت الأسرة عن بعض وظائفها. وبعض هذه المؤسسات من بين تلك التي تتواجد

في المجتمع الحديث، وتتولى بعض مهام التنشئة الاجتماعية، مثل المدرسة، والمكتبة، والمسجد، ووسائل الإعلام وغيرها. جميعها لها نسبة معينة من مسئولية التنشئة الاجتماعية. ويفترض ألا تزيد حصة كل منها على النسبة المفترض أنها مقرر. ثم هناك أجهزة ومنظمات أخرى يفترض أن دورها في عملية التنشئة محدود، أو ليس لها دور رئيسي مثل جماعات الجيرة، وعصابات الصغار، وما على شاكلتها

بعض هذه عبارة عن جماعات منحرفة، وتتولى تعليم الصغار تقنيات الانحراف وتقنيات تبريره. عندما تتولى مثل الجماعات ملء الفراغ الذي تتركه الأسرة، فلا يتوقع أن تكون النتائج طيبة. إن كثرة تعدد المؤسسات والجهات التي تشترك في عملية التنشئة الاجتماعية، لا يعنى بالضرورة وجود تنسيق بينها. بل قد يعنى الكثير من الخلافات ومن التضارب. مما يؤدي لوقوع الصغير فريسة لحالة من عدم الوضوح فيما يتعلق بالقيم وبالمعايير.

الاستهلاك صفة من صفات المجتمع. لكن من بين خصائص المجتمع الحديث أنه مجتمع الاستهلاك الواسع. وهو وضع ساعد على ظهور قيم جديدة، تحث على التوسع في الاستهلاك وتزين طريقه. وقيم تحث على كسب المال والكثير منه ليتمكن الفرد من الشراء والاقتناء الكثير والمستمر. وعندما يتم التأكيد بقوة على كسب المال، ولا يصاحبه التأكيد بنفس القوة على أن يتم بالأساليب المعيارية، وأن يرتبط به نظام صارم للضرب وبشدة على يد كل مخالف بغض النظر عن موقعه الاجتماعي، قد يكثر عندئذ عدد الذين يستسهلون الطرق، ويختارون أقصرها، حتى ولو لم تكن شرعية، أو لا تحظى باحترام الملتزمين بالقيم الثقافية. فمثلا قد تكثر حالات الذين يختارون القيام بأعمال غير منتجة اجتماعيا، كأعمال السمسرة والوساطة، والحراسة، والتحليل على القوانين، وغيرها من الأنماط التي لا تحتاج الى مجهود كبير، ولا الى التسلح بقدرات علمية أو فنية.

لا شك أن المال أصبح يحتل مكانة عالية. ففي المجتمع الحديث، لا يحصل الفرد على شيء مادي بدون مال. ويستطيع المرء شراء أي شيء مادي بالمال بغض النظر عن مصدره. فكما يشتري شخص سلعة بمال كسبه بعرقه، يشتريها شخص آخر بمال مسروق. 4

فعند القيام بعملية شراء في المجتمع الحديث، لا يسأل الشاري عن مصدر ماله، ولا عن الوسيلة التي استخدمها لجمعه. لم يكن هذا متاحا عندما كان المجتمع بسيطاً، ومجال الشراء محدوداً. ويكمن الخطر في أن يتشرب الأفراد القيم المادية لذاتها. صحيح إن المال هو عصب الحياة في المجتمع الحديث، لكنه ليس كل شيء في حياة الإنسان. فهو وسيلة لتحقيق غايات، وليس غاية في حد ذاته. "إن النقود قادرة فعليا على شراء أي شيء في ظل الرأسمالية، إلا أنها تعجز عن أداء هذه الوظيفة في العالم الإنساني الحقيقي. ففي مثل هذا العالم، يستطيع الفرد مثلاً أن يقايض الحب بالحب فقط. فالثروة مجرد مظهر خارجي، إذا نزعنا فإنها لا تترك أثراً. لكن عالمية الحاجات والقدرات، وصور الاستمتاع، والقوى الإنتاجية للأفراد ... الخ.. تتحقق في ظل عملية تبادل شاملة. فماذا يحدث إذا لم يتحكم الإنسان كلية في قوى الطبيعة؟ طبيعة الإنسان نفسه، والطبيعة بالمعنى الشائع؟ وماذا إذا لم تحدث بلورة وتطوير كامل لنزعات الإنسان الإبداعية".

المال هو عصب الحياة. لكن الثقافة الرسمية تقتضي أن من يستوعب قيمة المال، عليه، أن يستوعب بالمقابل قيمة الحصول عليه بالسبل المقررة أي المشروعة. غير أن السائد في الكثير من مجتمعات الوقت الحاضر، أن هناك ثقافة غير رسمية، تشجع الفرد على تحقيق النجاح المادي من دون أن تحثه بالمثل على اتباع الوسائل المشروعة، المؤدية لذلك النجاح.

والا كيف يمكن تفسير قيام أفراد يحتلون مراكز اجتماعية مرموقة، باستغلال هذه المراكز لكسب المال الكثير، وبدون حدود، بوسائل غير مشروعة، بل وتؤدي عندما تكشف أسرارهم الى انهيار كل شيء بنوه. وقد فضل بعضهم الانتحار عن مواجهة الناس. ولكن على الجانب الآخر أيضا، يلاحظ أن البعض ما يزالون يحققون أهدافهم أو بعضها بالسبل المشروعة. وتحتل قيمة النجاح عندهم مكانة عالية. هل يعني أن هؤلاء يتمتعون بصحة ضمير لا يتمتع بها أعضاء آخرون؟ وماذا تعني صحة الضمير؟ هل تعني أكثر من تشرب الفرد للقيم الثقافية الصحيحة؟

أصبحت الجماعتان اللتان تقدم وصفهما موجودتين جنباً الى جنب في المجتمع الحديث وأعمالهما غير خافية وفي نفس الوقت يتعرض الجميع لضغوطات للعمل، لتحقيق النجاح ولزيد من النجاح. يقع الأفراد تحت تأثير قوتين، تمثل إحداهما ثقافة تؤكد على ضرورة تحقيق النجاح بأية وسيلة، وتمثل الثانية مجموعة وسائل واضحة. لكن السير عبر تلك الوسائل، يتطلب تزود الفرد بإمكانات معينة. ويكتشف البعض أن الطرق للتزود بتلك الإمكانيات غير مفتوحة، أو تعترضها عقبات كثيرة. وفي رأي بعض الباحثين قد تؤدي الضغوطات الكبيرة للنجاح الى الانحراف، عندما يفشل المجتمع في المساواة بين أعضائه، من حيث فرص الوصول الى القنوات الشرعية المؤدية للنجاح. وكأن المجتمع الذي تؤكد ثقافته على القيمة لذاتها، ولا تربط بمبدأ تكافؤ فرص الوصول الى الوسيلة، ولا تراعي الإمكانيات والقدرات الفردية، يكون أرضاً صالحة لزرع بذور اللامعيارية. وفي مجتمع يؤكد فيه باستمرار على النجاح المادي، وتتاح الفرصة فيه للجميع، للاطلاع على مظاهر النجاح المادي، ويعلن فيه أن الجميع متساوون في حق التقدم الى الأمام، قد لا يجد من يجرب، ويتأكد من أن الطرق المؤدية لأبواب النجاح، ليست مفتوحة أمام الجميع بالتساوي، غير البحث عن سبل جديدة ومختلفة حتى لو نعتتها الثقافة السائدة بالانحراف. 2

المراجع العربية

1. جون سكوت وجوردن مارشال، موسوعة علم الاجتماع، المجلد الثاني، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، ط2، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، 2001.
2. انتوني غيدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، بيروت، لبنان، 2005.
3. مصطفى عمر التير، وعثمان علي أميمن، التغير في أنساق القيم ووسائل تحقيق الأهداف، ط1، دار الكتاب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2003.
4. اسكندر، نبيل رمزي الإغتراب وأزمة الإنسان المعاصر، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988.
5. الجوهري، محمد وآخرون، التغير الاجتماعي، ط3، دار المعرفة الجامعية، 1993.
6. كمال التابعي، الاتجاهات المعاصرة في دراسة القيم والتنمية، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1985.
7. عبد الله ابراهيم، علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، ط4، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2013.
8. أسعد أحمد جمعة وعارف أحمد جمعة، دراسات في علم الاجتماع الاسلامي، ط1، دار العصماء، دمشق، سوريا، 2009.
9. معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن، 2005.
10. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، مشاهد من الواقع الاجتماعي، ب ط، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، مصر، 2005.

11. دوني كوش ، ترجمة مقدار قاسم المقداد، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ب ط، مطبعة اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سوريا ، 2002.

12. أحمد النكلاوي ، علم الاجتماع وقضايا التخلف دراسة تحليلية برؤيا ماكروسكوبية ، ط1، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، 1989.

المراجع بالأجنبية

13. Clinard,B.M,**Anomie and Deviant behavior**,New York: the Free press,1971.

14. Merton,K.R. ,**Social Theory and Social stucture**,new York :the Free press 3rd Edition,1968.

مجلة
حقائق